ظاهرة الشّعر الملحون شعر سيدي لخضر بن خلوف – نموذجا–

الأستاذة: لمياء مرتاض– نفوسيّ،

قسم علوم الإعلام والاتّصال، جامعة مستغانم.

مقدّمة:

يمثّل الأدب الشّعبيّ عنصرا مهمّا في تكيل الوعي لدى الفئات العريضة من المجتمع، إذ أنّه يتمثّل في "تلك المأثورات الشّعبيّة الشّفهيّة المتوارثة؛ الّتي تعبّر عن الضّمير الجمعيّ للمجتمع، وتعبّر عن تجاربه الحياتيّة في ظروف اجتماعيّة واقتصاديّة معينة."[1] و يضمّ بذلك "القصّة، الشّعر، الحكاية الخرافيّة، الأمثال، وكذلك الألغاز والأغاني النّابعة كلّها من إلهام وإبداع طبقات الشّعب."[2] وهكذا، يعتبر الأدب الشّعبيّ غنيّا بعناصره الّتي هي نتاج تجارب الأفراد، وتعبّر عن الظّروف الّتي عايشوها في فترة ما من حياتهم، يتداول بشكل انتقاليّ من جيل إلى آخر عبر الذّاكرة الجماعيّة (Mémoire collective) الّتي تحفظه. ومن بين عناصره، نجد الشّعر الملحون. فكيف ظهر الشّعر الملحون؟ كيف انتشر بالمغرب العربيّ؟ وما هي أهمّ أغراضه؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة مع تقديم نموذج للشّعر الملحون المتمثّل في شعر سيدي لخضر بن خلوف.

أهميّة الشّعر الملحون:

يعتبر الشّعر الملحون عنصرا مهمّا من الأدب الشّعبيّ، وكلّ ما يطبّق من خصائص على الأدب الشّعبيّ، يطبّق كذلك عليه؛ فهو شفويّ، لم يدوّن الكثير منه. يعبّر عن الضّمير الجمعيّ للمجتمع بكلّ ما يعكسه من قيم ومعايير ونماذج ثقافيّة يقتدى بها، معبّرا عن آلام وأحلام الجماهير الشّعبيّة في فترات تاريخيّة متعدّدة، مسجّلا تلك الأحداث الّتي أضحت مع الوقت سجّلا تاريخيّا يستند عليه، كجزء من الماضي والحاضر في آن واحد، هذا الماضي الّذي نجد بصماته محفوظة في قصائد خلّدت للأبد لا يمكن الاستغناء عنها، يتفاعل أفراد المجتمع ويتواصلون من خلالها، "فالآتي من الماضي هو أوّل وأقوى مصدر من مصادر الثّقافة، والأكثر ارتباطا وتفاعلا وحضورا في ممارسات النّاس وانفعالاتهم وتفضيلاتهم في حياتهم اليوميّة."[3] وهكذا، يتشكّل الوعي لديهم وتبنى هويّتهم من خلال هذه العمليّة. وقد تحوّل الشّعر الملحون بالجزائر"الّذي يلقى مع الموسيقى أو بدونها بالنّسبة للجماهير الشّعبيّة الّتي كانت في غالبيّتها غير متعلّمة؛ الوسيلة التّثقيفيّة الوحيدة والمصدر الوحيد للحصول على معلومات تخصّ أحداثا مهمّة؛ أثّرت في تاريخ السّلف."[4]

ظهور الشّعر الملحون:

بداية، يوضّح ابن خلدون كيفيّة نشوء الشّعر الملحون، مبيّنا أنّ الشّعر عالميّ وموجود في كلّ الثّقافات، ثمّ يوضّح قائلا: "ولما فسد لسان مضر ولغتهم الّتي دوّنت مقاييسها وقوانين إعرابها، وفسدت اللّغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة، فكان تخيّل العرب بأنفسهم لغة؛ خالفت لغة سلفهم من مضر في إعراب جملة، وفي كثير من الموضوعات اللّغويّة وبناء الكلمات."[5] وهكذا، يوضّح العلاّمة أنّه بفعل التّثاقف الّذي نتج بفعل التّفاعل، والاحتكاك بين العرب والعجم بعد الفتوحات الإسلاميّة؛ قد طرأت على اللّغة العربيّة بمقاييسها وقوانين إعرابها تغيّرات، وخلقت اللّهجات المختلفة. كما يؤكّد هذه النّقطة منيف موسى حين يقول: "إنّ انحراف اللّهجات العاميّة عن الفصحى سببه تداخل العرب – عبر غير قناة- بشعوب أخرى."[6] ويستمرّ ابن خلدون في تحليله لهذه الظّاهرة اللّغويّة قائلا: "ثمّ لما كان الشّعر موجودا بالطّبع في أهل كلّ لسان(...) فلم يهجر الشّعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر (...) والعرب، أهل هذا الجيل، المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر، فيقرضون الشّعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون."[7] بذلك، نجد العلاّمة يحدّد هذا التّحول من الشّعر باللّغة العربيّة الفصحى – إلى وقت ما كان الوحيد المعمول به لدى العرب- إلى نوع جديد من الشّعر، يخضع لنفس معايير وقواعد الشّعر الفصيح، بغضّ النّظر أنّه لا ينطق بلغة مضر. ورغم كلّ التّغيّرات الّتي شهدها العرب؛ فإنّهم لم يستغنوا عن الشّعر لأنّه منغرس في طباعهم وسلوكا تهم، ولكن هذه المرّة بفعل التّأثيرات الّتي تمّ ذكرها آنفا، فإنّه ظهر بغير لغة العرب المعتادة، ولكن بنفس الأوزان والقواعد. ويضيف قائلا في تحديد طبيعة هذا الشّعر مقارنة بالشّعر الفصيح: "وأساليب الشّعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإنّ غالب كلماتهم موقوفة الآخر، ويتميّز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب."[8] ومنه، ظهرت فنون كثيرة الّتي منها الزّجل الّذي ظهر بالأندلس، ثمّ انتشر فيها بعد بالمغرب العربيّ، وقد استند ابن خلدون إلى مجموعة من هذه القصائد الّتي تعود إلى العصر الهلاليّ. ويؤكّد هذه الفكرة أحمد قنشوبة بقوله: "يبقى الأدب الهلاليّ أوّل مظاهر الأدب الشّعبيّ الّذي ظهر في الجزائر، إذ لا توجد أدلّه تدلّ على وجود مثل هذا النّوع من الأدب قبل الهلاليّين."[9] ويدعّم هذه القضيّة التّليّ بن الشّيخ بقوله: "ومن المستبعد أن لا يعرف السّكان الأصليّون نظم الشّعر، وروايته إلاّ بعد هجرة بني هلال إلى هذه الأقطار. وما يدعّم هذا الافتراض أنّنا نجد أنماطا من القصص الشّعبيّ والرّقصات الشّعبيّة، وبعض العادات والتّقاليد سابقة للفتح الإسلاميّ، بينما لم يعثر على نصوص من الشّعر الشّعبيّ سابقة لهجرة القبائل الهلاليّة."[10] كلّ هذه الأدلّة تبيّن حداثة الشّعر الملحون على الأقلّ في المغرب العربيّ. وكان لهجرة الأندلسيّين تأثير كبير على تقويّة نزعة الشّعر الملحون في المغرب العربيّ، وفي الجزائر على وجه الخصوص، حيث استدلّ التّليّ بن الشّيخ على ذلك بعاملين اثنين:

-الزّجل الّذي ابتكر في الأندلس، والّذي يقال بالعاميّة.

-وعامل وصول علماء وأدباء مهاجرين الّذين كان لهم دور كبير في نقل الثّقافة والأدب من الأندلس إلى إفريقيّة[11] . وفي هذه الصّيرورة؛ انتقلت أغراض الشّعر الفصيح إلى الشّعر الملحون.

أغراض الشّعر الملحون:

تعدّدت مواضيع الشّعر الملحون إلى درجة "أنّ سائر النّواحي الّتي تعتادها في الشّعر العربيّ الفصيح نجد لها مقابلا في الملحون."[12] وتتمثّل هذه الأغراض فيما يلي:

1-وصف الطّبيعة: "وهو غرض يكاد يكون تقليديّا."[13] ويسمّى هذا النّوع "بالرّبيعيّات"؛ يصف فيه الشّاعر الطّبيعة بكلّ ما تحويه من رونق وجمال.

2-الغزل: هو كذلك من أكثر الأغراض شيوعا، فيه يتغزّل الشّاعر بحبيبته، أويرتبط ذلك -كما هو عند الصّوفيّة - "بالحبّ الإلهيّ، حيث يتعلّق الشّاعر الصّوفيّ بأنوار الذّات المقدّسة."[14] أو ما يسمّى بالعذراويّ، كما فعل المغراويّ عند تغنيه بمكّة المكرمة الّتي سمّاها "عيشوش".

3-الخمريّات: يتمّ عادة اللّجوء إلى هذا الغرض لوصف الخمرة في سياق رمزيّ له دلالات خاصّة "للتّعبير الدّينيّ ذي الاتّجاه الصّوفيّ."[15] ويكون ذلك "من قبيل الرّمز ولا علاقة له بالخمرة الدّنيويّة."[16]

4-المدح: وهو كذلك من أكثر الأغراض التّقليديّة، كان موجودا لدى العرب قبل الإسلام، ثمّ استمرّ مع ظهوره حتّى انتقل إلى الشّعر الملحون.

5-الرّثاء والهجاء: كذلك هي الحال بالنّسبة لهذا الغرض فقد انتقل إلى الشّعر الملحون.

6-الشّعر الدّينيّ: يعود تاريخ هذا الغرض على الأقلّ إلى القرن 16م مع شعر سيدي لخضر بن خلوف الّذي غلب على قصائده هذا الطّابع الدّينيّ التّصوّفيّ. يؤكّد هذه الفكرة أبو القاسم سعد الله حين يذهب للقول أنّ هذا الغرض من أهمّ الأغراض الّتي طرقها الشّعراء، ولا سيما مدح الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- والتّشوّق إلى زيارة قبره، والتّوجّه إلى الله وقت الشّدة، ومدح ورثاء الأولياء والصّالحين[17].

كما توجد أغراض أخرى لا تقلّ أهميّة عن الأولى تتمثّل فيما يلي: الشّعر الاجتماعيّ، الشّعر السّياسيّ الوطنيّ، الشّعر التّربويّ التّعليميّ، الشّعر المسرحيّ، الشّعر الفكاهيّ، الشّعر الملحميّ، الشّعر الخرافيّ، الشّعر القصصيّ.

ومن خلال هذا العرض الموجز لأغراض الشّعر الملحون، كأن هذا الأخير وهو يبحث عن بناء هويّته ومكانته بين الفنون الأخرى، سيما مع الشّعر العربيّ الفصيح؛ أراد أن يشركه ممثلوه مع هذا الأخير ليعترف بمكانته؛ لذا نجده قد تبنّى كلّ أغراض الشّعر المتعارف عليها. ثمّ الملاحظ كذلك هو تداخل بعض الأغراض مع أغراض أخرى، فنجد أحيانا صعوبة في تصنيفها تصنيفا دقيقا، كتداخل غرض الشّعر القصصيّ مع الشّعر الملحميّ والشّعر الخرافيّ. لكنّ المؤكّد هو وصول الشّعر الملحون إلى رتبة تمكّنه من الاعتراف به كشعر قائم بذاته كما هو الشّأن بالنّسبة للشّعر

الفصيح. والّذي يهمّنا في هذه الدّراسة هو غرض الشّعر الدّينيّ الّذي سنقدّم من خلاله كنموذج شعر سيدي لخضر بن خلوف.

نبذة عن حياة الشّاعر:

في الواقع لا نعرف الكثير عن حياة هذا الشّاعر اللّهم ما توارثته "الرّوايات الشّفهيّة المختلفة المشكوك في صحتها لكثرة اختلافها."[18] والقليل عن حياته الّذي عثرنا عليه وجد في قصائده الّتي حدّد من خلالها اسمه الكامل واسم قبيلته. بداية نجد الشّاعر قد ذكر اسمه في عدّة قصائد. وهكذا، جرت العادة عند الشّعراء الكبار؛ إذ كانوا يذكرون أسماءهم في نهاية قصائدهم حتّى تخلّد وتحفظ من السّرقة، ويبقى اسم ناظمها للأبد. يقول في إحدى قصائده:

روحي في الجنة اتشاهدك والملائكة وقوف

والحورات اتقول شاعرك الأكحل وجده الخلوف

إذاً تحدّد هذه الأبيات الاسم الحقيقيّ لشاعرنا على أنّه الأكحل بن خلوف، "ولعلّ السّبب في تحويل اسمه، وتعويض الأكحل بالأخضر يرجع إلى الاعتقادات السّائدة آنذاك والّتي كان من ضمنها التّفاؤل والتّباشر بكلّ كلمة أو علامة تشير إلى شيء يبشر بالخير."[19] بتسميّته "الأخضر" بدلا من "الأكحل" (أي الأسّود) هو تفاؤل بالخير. يقول في بيت آخر:

الله يرحم قائل الأبيات الأكحل واسم بوه عبد الله

إذًا اسم شاعرنا بالكامل هو الأكحل بن عبد الله بن الخلوف. وقد نشأ سيدي الأخضر بن عبد الله بن خلوف في القرن 16م في ناحية "من جبال مغراوة الجزائريّة، في وسط كريم مشهور بخصال العرب، وعندئذ كان أوّل عصر الاحتلال التّركيّ."[20] كانت هذه نبذة موجزة عن حياته. أمّا الآن فسنتطرّق إلى تحليل محتوى ديوانه من حيث: المواضيع المعالجة فيه، الأهداف والقيم الّتي يحملها.

عرف تحليل المحتوى (Analyse de contenu) تطوّرا منذ ظهوره، وأضحى يعنى بكلّ أشكال الخطاب (Discours)، ليستخدم في عدّة تخصّصات: العلوم السّياسيّة، التّحليل النّفسيّ لاكتشاف في خلفيات السّلوك اللّغويّ للمريض، علم الاجتماع وكذلك في الدّراسات الأدبيّة."وتحليل المحتوى (وثيقة أو اتّصال) هو البحث عن المعلومات الموجودة فيها، استخراج المعنى أو المعاني الكامنة، صياغة وترتيب كلّ ما تحتويه الوثيقة أو الاتّصال."[21] وعلى هذا الأساس، قمنا بتحليل محتوى ديوان سيدي لخضر بن خلوف باعتباره وثيقة مكتوبة بتحديد بعض الفئات (Catégories) بداية بتحديد فئة الموضوع(Thème) .

I- فئة الموضوع:

تتفرّع القصائد الّتي تمّت دراستها إلى مواضيع فرعيّة(Sous-thèmes) نعرضها في الجدول الموالي:

الموضوع	التّكرار	النّسبة (%)
مدح النبي	18	58.06
شكر الله وتعداد نعمه	03	9.68
تذكر الموت وعذاب القبر	03	9.68
موعظة	03	9.68
قصة مزغران	01	3.22
الوصية	01	3.22
قصة عمر بن اليزيد	01	3.22
رجاء دخول الجنة	01	3.22
المجموع	31	100

من خلال تحليلنا لهذا الجدول؛ يتّضح لنا أنّ جلّ المواضيع تصبّ في المدح، وبالتّحديد مدح الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم – بنسبة 58.06%. تليها المواضيع التّالية بنسب متساوية تقدّر بـ 9.68% والمتمثّلة في: شكر الله وتعداد نعمه، تذكّر الموت وعذاب القبر و غرض الموعظة. وفي الأخير وبأصغر نسبة مقدّرة بـ 3.22% نجد الشّاعر قد تطرّق إلى أربعة مواضيع مختلفة هي كالتّالي:

قصّة عمر بن اليزيد، قصّة مزغران، رجاء دخول الجنّة، وفي الأخير قصيدة عبارة عن وصيّة يتركها للأجيال القادمة. وهكذا، فقد غلب غرض المدح على قصائد سيدي لخضر بن خلوف، مادحا بذلك الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم – مذكّرا بصفاته وأخلاقه العالية.

ويجب التّذكير بالسّياق السّوسيو- ثقافيّ والسّياسيّ الّذي عايشه الشّاعر، فقد امتاز عصره بالاحتلال التّركّيّ للجزائر، "ويمتاز زمانه بانحطاط السّياسة الدّاخليّة مع وجود ثقافة عربيّة إسلاميّة (...) كما عمّت الاضطرابات شمال إفريقيا، أمّا التّدريس فقد بقي على أساسه الدّينيّ، تعلّم فيه علوم اللّغة والحساب ومبادئ الدّين والأدب والفقه والجغرافيّة والهندسة."[22] لقد كان الشّاعر واعيا للأخطار الّتي بدأت تحاصر الأمة الإسلاميّة والأعداء القدماء والجدد لها، سيما اليهود الّذي كان ينعتهم "ببناين الشّمتة"[23]

في هذا السّياق، وطيلة ثمانين سنة لم يكفّ شاعرنا عن مدح الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم- حيث "أفنى عمره في مدح المصطفي." [24] هذا المدح للرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم- هو الّذي ميّز شعر سيدي لخضر بن

خلوف إلى درجة أنّه أصبح يعرف "بمدّاح الرّسول". وكان لذلك وقع كبير في نفسيّة الجزائريّين حيث كانت "في الجزائر كلّ الأفعال (Actes) مصبوغة بالتّديّن: أضرحة الأولياء، الجمعيّات الدّينيّة الّتي كانت تمثّل إطار الحياة القرويّة."[25] وبفعل ارتباط معظم أشعاره بمدح الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم- فقد أضحى "نموذجا للمدّاحين أو شعراء الملاحم الشّعبيّة في المنطقة،"[26] وقد قضى الثّمانين سنة الأخيرة من عمره في مدح الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم-. فنجده يناديه بأسماء عدّة: أنت سيدي، صاحب المقام الرّفيع، الطّاهر الحبيب الشّفيع، طير الخضرا، صاحب الحسن والبهاء، سراج الدّهر، سيد الأمة، محمد خير الأنام، سيد المهاجرين وسيد الأنصار، الحبيب الماحي، سيد عدنان، محمد راحة العقاب، تاج الرّسلا، صاحب الشّفاعة المدنيّ، يا المختار. كلّها قصائد مناجاة للرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم-، أشعار تكثر فيها الصّلاة عليه، تعدّد خصاله، تذكير بمعجزاته وشوق للقائه. ومدحه "ممزوج بالحماسة والحكم والزّهد (...) ما بكى إلاّ على تفريطه أو شوقه للرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم-."[27] وبالفعل، لم نعثر في الدّيوان على قصيدة واحدة نظّمت في الغزل، فقد كان "بعيدا كلّ البعد عمّا لا يناسب الوليّ الصّالح، كالغزل والرّثاء."[28] ومن بين ما قال فيه:

يا شنط الكفين يا عضيد الروامق يا راكب البراق والنجب العشاري

يا جد الحسنين يا طيب العواشق يا مولى أحمد اكفل ذنبي وعاري

ما دامت عمري نمدحك يا الصادق الى أن تضحى يدي اليمين تحت عداري

في هذه القصيدة؛ يصرّح الشّاعر أنّه سيمدح الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم- إلى آخر لحظة من حياته.

في الفترة الّتي عاشها شاعرنا، كان المعتقد الدّينيّ مترسّخا "في المناخ الثّقافيّ العامّ، وفي السّلوك الفرديّ والجماعيّ"[29] بذلك، كانت هنالك حاجّة ماسّة للتّعبير باللّجوء إلى الدّين ممّا زاد من إقبال الشّرائح الاجتماعيّة المختلفة، على تفاوت مستواها التّعليميّ على شعر لخضر بن خلوف إلى يومنا هذا، باعتبار الدّين "ثقافة كاملة لشعب أو أمّة أو حضارة، ليس في كونه مجموعة نصوص وتعاليم وقيم فحسب، بل بما هو كيان مجسّد اجتماعيّا، ومبلور بالممارسة في أنماط وتقاليد وأفعال."[30] أيّ أنّ تركيز شاعرنا على مدح الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم- بتعداد خصاله ومعجزاته وإنجازاته للأمّة الإسلاميّة؛ يعبّر عن الثّقافة الواسعة الّتي كان يتميّز بها الشّاعر فيما يخصّ الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم- مقترحا بذلك رؤية للعالم كما هو وكما سيكون بعد نهايته.

وبعد موضوع مدح الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم-؛ تأتي في المقام الثّاني وبالتّساوي، بداية قصائد يشكر فيها لخضر بن خلوف الله ويعدّد نعمه عليه الّتي هي في الواقع لا تعدّ ولا تحصى، حيث خصّص قصيدة "إذا تحيرت من ذنوبي" لذكر أسماء الله الحسنى "؛ والّتي يعدّ الإيمان بها وبمحتواها أساس من الأسس العقيديّة"[31] وقد جاءت أسماء الله في هذه القصيدة كما يلي: ملك الملوك- الباقي –الغاني (بمعنى الغني) السّميع- الباصر (بمعنى البصير) –

الجليل –الحق –الحميد –الصابر ذو الجلال –العلام (بمعنى العليم). ويعدّ هذا العرض الّذي قام به الشّاعر لبعض أسماء الله الحسنى تعدادا لنعمه وشكرا له، حيث يقول فيها:

إذا تحيرت من ذنوبي نستغفر والاله نذكر

الستار يسترلي عيوبي نحمده ولا بد نشكر

يا ملك الملوك ربي سبحان الدايم المدبر

ثمّ يأتي موضوع تذكّر الموت وعذاب القبر؛ فقد اشتهر الشّاعر بزهده وإيمانه القويّ بالله –عزّ و جلّ– ، كما أنّه كان مشهورا من خلال قصائده "بوعظ النّاس بعذاب الآخرة."[32] وتأتي في التّرتيب نفسه؛ قصائد كانت عبارة عن موعظة للنّاس تمّ من خلالها حثّهم على الصّلاة، حيث من بين ما يقوله في قصيدة "قم صلي":

قم صلي واخزي الشيطان يا الغفلان عندما لاح الفجر وبان قم صلي

يا الغافل ماذا يرجاك قم بركاك لو تعرف اللي يرجاك تظل تبكي

القبر والحساب وراك ليه ملقاك لا حبيب ياتيك غدا ليه تشكي

هذه القصيدة عبارة عن دعوة للصّلاة واحترام أوقاتها وتذكير لعاقبة من يتغافل عن هذا الأمر.ثمّ هنالك قصيدة أخرى في الغرض نفسه الهدف منها دعوة للتّوبة، وطلب للمغفرة من كلّ الذّنوب الّتي يرتكبها الإنسان في حياته، حيث يقول:

لله توب يا بو نادم واتفكر القبر عذابه يرجاك

وإذا بقيت غافل هايم راه يجي الواد مزروبا وداك

ولننتقل الآن إلى غرض آخر؛ يتمثّل هذه المرّة في الشّعر القصصيّ، حيث تعتبر القصّة من أقدم أنواع التّعبير،إذ هي"الأداة الأساسيّة للتّذكير والتّاريخ، ووعاء المعارف والحكم والخلاصات الّتي تحفظ خبرات وممارسات الحياة."[33] وبالفعل، فقد حفظت الكثير من القصص في القصائد الشّعريّة الملحونة، وتناقلتها الأجيال إلى يومنا هذا، وما زالت محفوظة في صيغتها الأولى بفعل الوزن والقافيّة الّتي تلعب دورا كبيرا في هذه الصّيرورة، حيث "تسهّل لقائلها تخزينها في ذاكرته والفهم للجمهور."[34] ويتعلّق الأمر هنا بقصّة عمر بن اليزيد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى وبنسبة متساوية للأولى، نجد الشّاعر قد نظّم في موضوع رجاء دخول الجنّة، واصفا بما تحويه من نعم، راجيا من الله أن تكون من نصيبه، محذّرا من عذاب جهنّم، ومتمنيا أن يكون بجوار النّبيّ بقوله:

لا تحرمنا من الجنان ولا جنة التي كل ما تراه إلا فيها

ولا تجعل أهل جهنم منا لا تجعلنا من أهلها ولا ليها

اكتبني للنبي خديم مملوك المصطفي مربي الأولاد

ولا تحرمنا من النعيم بجاه المصطفي أحمد محمدي

ثم وفي المرتبة نفسها، نجد شاعرنا يتغنّى بقصّة مزغران في قصيدة في ثمانية وتسعين بيت شعريّ، في "خماسات"، أيّ مقاطع تحتوي على خمسة أبيات لكلّ منها، وهذا -عادة- النّوع الشّكليّ الّذي استعمله سيدي لخضر بن خلوف لبناء قصائده. تنتمي القصيدة إلى غرض الشّعر القصصيّ، الّذي وصف فيه شاعرنا معركة مزغران الّتي وقعت سنة 1557م بين الجيش الإسبانيّ والسّكان المحليّين بقيادة الجيش التّركيّ، وكانت الغلبة للسّكان المحليّين الّذين قاتل بجانبهم شاعرنا. وتعتبر هذه القصيدة بمثابة وثيقة تاريخيّة استندد عليها المؤرّخون لتسجيل هذا الحدث التّاريخيّ بأدقّ التّفاصيل، بذكر أسماء قادة كلا الجيشين:

يا سايلني كيف القصة بين النصراني وخير الدين

ترى سفون الروم محترسة صبحوا في المنا اعداي الدين

احتاطوا بالأمير شنظاظوش بالشلية والقوس والبطاش

ففي هذه القصيدة وصف شامل لأدقّ ما حدث في هذه المعركة، بداية من وصول الإسبان، إلى حدوث المعركة، انتهاء بهزيمة الإسبان مع تحديد عدد الموتى فيها. كما نجده يعدّ المجاهدين الّذين شاركوا في المعركة أن مأواهم الجنّة قائلا لهم وهو يرفع من حماستهم:

يا مغراوة اتحزموا للكيد منكم اخلفت سلطانا واجوادا

يا تيجان العرب ليس بعيد لمن جاهد جنة الميعاد

ظللت بالليم والليموم فيها رجال الدين مكرومة

والفردوس طيورفيه تحوم وسنادس في النوع مرقومة

ونجده في آخر القصيدة يذكر اسمه ويفاخر بأصوله الّتي تصل إلى نسب رسول الله -صلّى عليه وسلّم- قائلا:

الله يرحم قايل الأبيات الأكحل واسم بوه عبد الله

المشهور اسمه من الفيات مغراوي جده رسول الله

وأمه من بيت محسنات اليعقوبية لالاة خولة

وفي الآخر الدّيوان، نجد الشّاعر يعرض وصيته بعد مماته في قصيدة عنونها بـ "ابقاوا بالسّلامة"، والّتي بدأها كعادته بالبسملة والصّلاة على الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم-. وهي عبارة عن وصية صاغها لخضر بن خلوف عند اقتراب منيّته، يوصي فيها بكثرة الصّلاة على رسول الله – صلّى اللّه عليه وسلّم – راجيا أن يحشر في الجنّة، واصفا يوم وفاته.

نظرا لزهد الشّاعر وبساطة الحياة الّتي عاشها، فلم يكن يملك الكثير، لذا نجده في بعض الأبيات يوصي بالقليل الّذي يملكه حتّى يقسّم على أبنائه، فيقول:

انت يا محمد انهلى في خيمتي أنت كبير داري وأنت مولاها

وانت يابا القاسم عمم بعمامتي تضحي لك هيبة لمن يراها

وانت يا أحمد خذ ادي سبحتي بها افتكرني وقتا تقراهـا

وانت الحبيب ولدي نطفة من الكابدة خذ شملتي وابرانيس الصوف

انهلوا في بعضكم لا تشفّوا في الأعدا قموا جنازتي واعطوا المعروف

كان ذلك عرض للمواضيع وأهمّ المواضيع الفرعيّة المستخرجة من خلال تحليل محتوى ديوان سيدي لخضر بن خلوف، وسنتنقل الآن إلى تحديد فئة القيم (Valeurs).

II – فئة القيم:

يساعدنا تحديد هذه الفئة على توضيح القيم الّتي استخدمها الشّاعر إمّا بصفة واضحة أوبصفة ضمنيّة. فيما يخصّ القيم الواضحة، نجد الشّاعر يتحدّث بشكل جلّيّ عن ضرورة تقوى الله، التّمسّك بالدّين والسّنة، تذكّر الموت وعذاب القبر، فكانت قصائده دعوة لتضامن المسلمين وتوحّدهم على العقيدة. كما نجد في أشعاره قيما ضمنيّة كضرورة الحذر من النّصارى واليهود حيث كان فطنا لمكائدهم وكرههم للإسلام والمسلمين. هذا فيما يخصّ فئة القيم، فماذا عن فئة الأهداف(Buts)؟

III– فئة الأهداف:

تساعدنا هذه الفئة على تحديد الغاية من نظم الشّاعر لهذه القصائد. ويبدو للوهلة الأولى أنّ الهدف منها هو إرشاد المستمعين وتذكيرهم بالدّين الإسلاميّ، في سياق سوسيو- سياسيّ يرجع إلى تلك الفترة الّتي عايشها الشّاعر؛ حيث كثرت النّزاعات الدّاخليّة والحروب بين الدّويلات، فعمّت الاضطرابات أرجاء الأمّة الإسلاميّة بأسرها.

فكان يدعو من خلال قصائده إلى تحرير الوطن ونصرة الدّين الإسلاميّ. لكنّ الهدف الخفيّ من وراء ذلك –حسب رأينا– هو حبّه الشّديد للرّسول –صلّى اللّه عليه وسلّم– وتعلّقه بخصاله ومكارم أخلاقه، كما أنّنا نلمس الشّوق للقائه.

الخاتمة:

كان الشّعر الملحون النّاطق بالعاميّة أقرب إلى الجماهير الشّعبيّة، يعبّر بشكل تلقائيّ في قالب فنيّ عن أحلامها وهمومها. ونُظِّم الشّعر الملحون في سياق سوسيو– تاريخيّ محدّد؛ عاكسا بذلك الأوضاع الاجتماعيّة والثّقافيّة السّياسيّة للمجتمع آنذاك. ولا يخرج شعر سيدي لخضر بن خلوف عن هذه القاعدة، فشعره محمّل بالحماسة والزّهد والتّصوّف؛ يغلب عليه غرض المدح. وينعكس المدح لديه في شخص الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم– حيث كان يستهلّ قصائده بالبسملة والصّلاة على الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم–، ثمّ يدخل في الموضوع.

تدلّ أشعاره على شوقه للقاء المصطفي – صلّى اللّه عليه وسلّم– وحبّه الكبير له ولصفاته العالية، كما أنّها تذكير بمعجزات الرّسل عليهم السّلام، ممّا يؤكّد مراكز اهتمام الشّاعر بهذا الموضوع قبل سواه. كما كانت أشعاره تذكيرا للنّاس كذلك بعذاب القبر، ضرورة القيام بالأعمال الصّالحة، تقوى الله ومحبّة الرّسول– صلّى اللّه عليه وسلّم– حتّى يتجنّب النّاس هذا العذاب. وقد استند للوصول إلى هذه الأهداف على القرآن الكريم وعلى شخصيّة الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم–، حيث استخدم هاتين النّقطتين الاثنتين ليقنع المستمع أكثر بعمق هذه المسألة، وذلك ليتأثّر أكثر بها، فنجد عنده الأثر المتوقّع، إذًا، فهذه الأشعار لا تخصّ الغزل ولا الرّثاء، وإنّما تخصّ مدح الرّسول– صلّى اللّه عليه وسلّم–. وهكذا يغلب على قصائد شاعرنا اتّجاه الموعظة والإرشاد والتّوجيه. فقد حاول في أكثر من مرّة التّذكير بمبادئ كان يريد أن يزرعها من جديد في قلوب الّذين ضلّوا الطّريق، لتتحوّل فيها بعد إلى نماذج يقتدى بها لتوجيه الفكر والسّلوك في الحياة الاجتماعيّة. وهو بذلك يقترح نموذجا روحانيّا أزليّا.

كان هذا المقال عبارة عن عرض موجز لظهور الشّعر الملحون حيث أخذنا كنموذج عنه شعر سيدي لخضر بن خلوف، الّذي يحتاج إلى دراسات أخرى لإدراك دلالاته ومعانيه.

الإحالات:

1- محمد شريف فاتن ،**الثّقافة والفولكلور**، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، 2008م، ص: 105.

2- عثمانيّ بولرباح، **دراسات نقديّة في الأدب الشّعبيّ** ،الجزائر، الرّابطة الوطنيّة للأدب الشّعبيّ لاتّحاد الكتّاب الجزائريّين، 2008م، ص:24.

3- عماد عبد الغنيّ، **سوسيولوجيّا الثّقافة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2006م، ص:137.

4 - Tahar Ahmed, **La poésie populaire Algérienne**, Alger, Société nationale d'édition et de diffusion, 1975

5 - ابن خلدون عبد الرّحمن، **المقدّمة**، بيروت، دار الفكر، 2004م، ص: 603.

6 - منيف موسى، **الشّعر العاميّ اللّبنانيّ في اللّهجات والكتابة والتّنظير**، بيروت، المؤتمر الثّاني للثّقافة الشّعبيّة اللّبنانيّة العربيّة، من 21 إلى 24 جويليّة 1999م، ص: 550.

7 - ابن خلدون، مرجع سبق ذكره.

8 - نفس المرجع السّابق، ص: 604.

9 - قنشوبة أحمد، **الشّعر الغضّ**، الجزائر، دار الفرابيّ، 2008م، ص: 19.

10 - بن الشّيخ التّليّ، **منطلقات التّفكير في الأدب الشّعبيّ الجزائريّ**، الجزائر، 1990م، ص: 23، في: أحمد قنشوبة، مرجع سبق ذكره.

11 - المرجع السّابق، ص: 49-50.

12 - بلكبير عبد الصّمد، **الشّعر الملحون،الظّاهرة ودلالاتها**، الجزء الأوّل، الدّار البيضاء، مطبعة النّجاح الجديدة، 2010م، ص: 126.

13 - المرجع السّابق، ص:127.

14 - بعيطيش يحي، **دراسات في الخطاب الصّوفيّ عند أقطاب الطّريقة العلاويّة**، الجزائر، منشورات جمعيّة الشّيخ العلاويّ للتّربيّة والثّقافة الصّوفيّة، 2009م، ص: 71.

15 - بلكبيرعبد الصّمد، مرجع سابق، ص: 133.

16 - بعيطيش يحي، مرجع سابق، ص: 120.

17- سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثّقافيّ**، الجزء الثّاني، الجزائر، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، 1981م، ص: 253

18 - خشلاف محمد الحبيب، **الأخضر بن خلوف من خلال شعره**، وهران، مركز البحث في الأنتربولوجيّا الاجتماعيّة والثّقافيّة، رقم 15، 2006م، ص: 25.

19 - المرجع السّابق، ص: 26.

20 - بخوشة محمد بن الحاج الغوثيّ، **ديوان سيدي الأخضر بن خلوف**، الرّباط، مطبعة الشّمال الإفريقيّ، 1958م،ص: 3-4.

21 -Mucchielli Roger, **L'analyse de contenu des documents et des communications**, Paris, les éditions ESF, 4ème Edition, 1982, p.17.

22 - بخوشة محمد بن الحاج الغوثيّ، مرجع سابق، ص: 05.

23 - المرجع السّابق.

24 - قاضي محمد، **الكنز المكنون في الشّعر الملحون**، الجزائر، المطبعة الثّعالبيّة، 1928م، ص: 07.

25 - Bourdieu Pierre, **Sociologie de L'Algérie**, France, PUF, 1958, p.97.

26 - Bodin Marcel, **Traditions indigènes sur Mostaganem**, 1925, p.167.

27 - بخوشة محمد بن الحاج الغوثيّ، مرجع سابق ، ص: 06.

28 - المرجع السّابق.

29 - سعادة ياسمين، **الشّعر الشّعبيّ الجزائريّ**، فترة العهد التّركيّ، جامعة الجزائر، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الثّقافيّ، 2002م – 2003م، ص: 319.

30 - عماد عبد الغنيّ، مرجع سابق، ص: 138.

31 - سعادة ياسمين، مرجع سابق، ص: 265.

32 - قاضي محمّد، مرجع سابق.

33 - بلكبير عبد الصّمد، مرجع سابق، ص: 254.

34- Calvet Louis-Jean, **La tradition orale**, France, PUF, 1984, p.39.

قائمة المراجع والمصادر :

– محمد شريف فاتن ،**الثّقافة والفولكلور**، الإسكندريّة، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، 2008م.

- عثمانيّ بولرباح، **دراسات نقديّة في الأدب الشّعبيّ**، الجزائر، الرّابطة الوطنيّة للأدب الشّعبيّ اِتّحاد الكتاب الجزائريّين، 2008م.

- عماد عبد الغنيّ، **سوسيولوجيّا الثّقافة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2006م.

- ابن خلدون عبد الرّحمن، **المقدّمة**، بيروت، دار الفكر، 2004م.

- قنشوبة أحمد، **الشّعر الغضّ**، الجزائر، دار الفرابيّ، 2008م.

- بلكبير عبد الصّمد، **الشّعر الملحون، الظّاهرة ودلالاتها**، الجزء الأوّل، الدّار البيضاء، مطبعة النّجاح الجديدة، 2010م.

- بعيطيش يحي، **دراسات في الخطاب الصّوفيّ عند أقطاب الطّريقة العلاويّة**، الجزائر، منشورات جمعيّة الشّيخ العلاويّ للتّربية والثّقافة الصّوفيّة، 2009م.

- سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثّقافيّ**، الجزء الثّاني، الجزائر، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، 1981م.

- بخوشة محمد بن الحاج الغوثيّ، **ديوان سيدي الأخضر بن خلوف**، الرّباط، مطبعة الشّمال الإفريقيّ، 1958م.

- قاضي محمد، **الكنز المكنون في الشّعر الملحون**، الجزائر، المطبعة الثّعالبيّة، 1928م.

مجلة :

- إنسانيّات، وهران، مركز البحث في الأنتربولوجيّا الاجتماعيّة والثّقافية، العدد15، 2006م.

أطروحة :

- سعادة ياسمين، **الشّعر الشّعبيّ الجزائريّ**، فترة العهد التّركيّ، جامعة الجزائر، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الثّقافيّ، 2002م – 2003م.